

# الفرق بين السلالة العرقية والسلالة التاريخية عند سعادته



شحادي الغاوي

عندما نقرأ سعادته يجب التمييز دائماً بين ما هو علمي وما هو فلسفي، أي بين ما هو وصفي وما هو معياري، حسب بعض الكتاب. ذلك أن سعادته بالإضافة إلى كونه صاحب عقيدة، أي فلسفة، أي نظرة جديدة إلى الحياة والكون والفن، فهو كذلك عالم اجتماع وله مؤلفه العلمي المشهور "نشوء الأمم". ويجب الانتباه أيضاً أن كتاب نشوء الأمم العلمي لا يحتوي نصوصاً فلسفية أبداً، وقد نوّه سعادته بنفسه عن ذلك بقوله: "إن كتاب نشوء الأمم هو كتاب علمي بحت تجنبت فيه التأويلات والاستنتاجات النظرية وسائر فروع الفلسفة ما وجدت لذلك سبيلاً". لكن هذا لا ينطبق على كتابات وأقوال سعادته ومؤلفاته الأخرى،

الفلسفية والعقائدية، فهذه مليئة بالنصوص العلمية التي أوردها سعادته في معرض الاستشهاد بها لتأييد صحة عقيدته. فلسفته ونظرته إلى الحياة. فسعادته يقول لنا إن عقيدته، أي فلسفته ونظرته، هي مؤسسة على العلم وإن كتابه "نشوء الأمم" هو الأساس العلمي للعقيدة. فبديهي إذاً أن نجد نصوصاً علمية في شروحات سعادته الفلسفية العقائدية مثل المحاضرات العشر وغيرها. والقارئ الفطن يستطيع التمييز جيداً بين الاثنين.



لسنا هنا في معرض البحث عن الفرق بين العلم والفلسفة أو عن العلاقة بينهما، بل عن الفرق بين السلالة العرقية الدموية، أي الحيوانية الفيزيائية حسب بعض التسميات، والسلالة التاريخية التي قال بها العالم "مورتيلة" ووافقها عليها سعادته (الأعمال الكاملة ج 3 ص 138). وغرضنا من هذا التفريق هو إجلاء الالتباس الذي يقع فيه بعض الباحثين عندما يقرأون سعادته ويجدون أنه، من جهة يشدد كثيراً على حقيقة المزيج السلالي عند جميع الشعوب والأمم وعدم جواز الأخذ بنظرية تفاضل السلالات، ولكنه من جهة أخرى، يقول "بالسلالة السورية الممتازة" مما يوحي بأن سعادته يناقض نفسه حيث إنه، مرة يقول بعدم جواز تفضيل وتمييز سلالة عن أخرى ومرة يفاضل هو نفسه ويقول بالسلالة السورية الممتازة. لكن هذا

الالتباس يزول عندما ننتبه ونعرف أن السلالة السورية الممتازة هي سلالة تاريخية وليست سلالة عرقية دموية، وأن هناك فرقاً كبيراً بين الاثنين ومعنيهما. وهذا ما سنبينه فيما يلي.

**أولاً: في السلالة العرقية الدموية.**

**نوعية المزيج وليس نوعية السلالات الممتزجة**

صحيح أن سعادته، كعالم اجتماع، يقول في كتابه نشوء الأمم "بان الانسانية موزعة الى سلالات راقية وسلالات منحطة"، لكن الصحيح ايضاً أنه كان يتكلم على السلالات الاولية فقط وهي لم يعد لها وجود الآن الا في الاقوام المنعزلة تماماً وهي نادرة، كما أنه كان ينقل لنا ما هو مقرر علمياً من قبل علماء الاجتماع في عصره. فلنقرأه تحت عنوان "نشوء السلائل وعددها" بقول: "وقد اختلف العلماء في تعيين عدد السلالات، ولعل ذلك بسبب اعتماد بعضهم أدلة أكثر من البعض الآخر. والأمانة لغرضها الكتاب تقضي أن لا نتوسع في هذا البحث أكثر مما يجب، ولذلك يحسن بنا التوفيق بين غرض الكتاب وهذا الموضوع أن نقسم السلالات البشرية الى قسمين: أولي ومرتقي".

وبعد ذلك مباشرة، وتحت عنوان "السلائل والعقليات" يقول: "إن السلالات امر فيزيائي واقع والادلة على وجوده متوفرة. ومما لا شك فيه أن هناك فوارق بين السلالات في الارتقاء والتمدن والاستعداد لهما عند السلائل الاولية ... وقد يكون ذلك بسبب عدم اكتمال تطورها... وأذا تركنا السلالات الابتدائية (أي الاولية) وعمدنا الى السلالات الواقعة ضمن نطاق المدنية الآسيوية الأوروبية وجدنا أنها كلها قد برهنت عن مزايا الارتقاء فيها... وبدهي أن لكل فرد نفسية أو عقلية خاصة مستقلة ولكن ذلك لا يعني أنها اساس للمقابلة والتفضيل السلاليين. وللسلالات عقليات مستقلة موجودة فعلاً ولكن لا يجب أن يتخذ ذلك حجة للتمسك بعقائد تفاضل السلالات المتمدنة تفاضلاً أساسياً جوهرياً كما رأينا فيما تقدم من هذا الفصل... وأن الادلة على عدم صحة القول بتفوق إحدى السلالات الراقية في المواهب العقلية على الاخرى لمتوفرة".

والى جانب تشديد سعادته، كعالم اجتماع، على عدم جواز التمسك بعقائد تفاضل السلالات وعدم صحة القول بتفوق سلالة على أخرى، فإنه يشدد على نوعية المزيج السلالي المعين وعلى أنه يجب التمييز بين مزيج ومزيج، وأن هذا التمييز ليس عائداً الى وهم نوعية وتمايز السلالات الداخلة في المزيج بل عائداً الى نوعية الامتزاج نفسه، أي أتساعه وشموله وتجده وتجانسه وغير ذلك. وهنا بالضبط ما يأخذه بعض المثقفين والكتاب والسياسيين على سعادته ويزعمون أن قوله بتفاضل المزيجات ليس قولاً علمياً أبداً بل هو قول عقائدي وفلسفي من النوع العنصري.

سأبين هنا الآن أن قول سعادته بتفاضل المزيجات، أي بمزيج سلالي افضل من مزيج سلالي آخر، هو قول علمي وحقيقة علمية وليس مجرد نظرة عقائدية وفلسفية خاصة بسعادته، رغم أن سعادته قاله في المحاضرات العشر أكثر مما قاله في نشوء الأمم، أي أن سعادته قاله في معرض شروحه العقائدية الفلسفية أكثر مما قاله في كتاباته العلمية. أن مبدأ التجانس أو التباين الدموي هو مبدأ علمي حصل عليه الاجماع.

ففي المحاضرة الرابعة وشرحه للمبدأ الاساسي الرابع من مبادئ الحزب يقول: "مع ذلك لا بد من

الاعتراف بواقع الفوارق السلالية وبمبدأ التباين والتجانس الدموي، وبهذا المبدأ يمكننا أن نفهم أسباب تفوق السوريين النفسي الذي لا يعود الى المزيج المطلق بل الى نوعية المزيج المتجانس الممتازة والمتجانسة تجانساً قوياً مع نوعية البيئة.

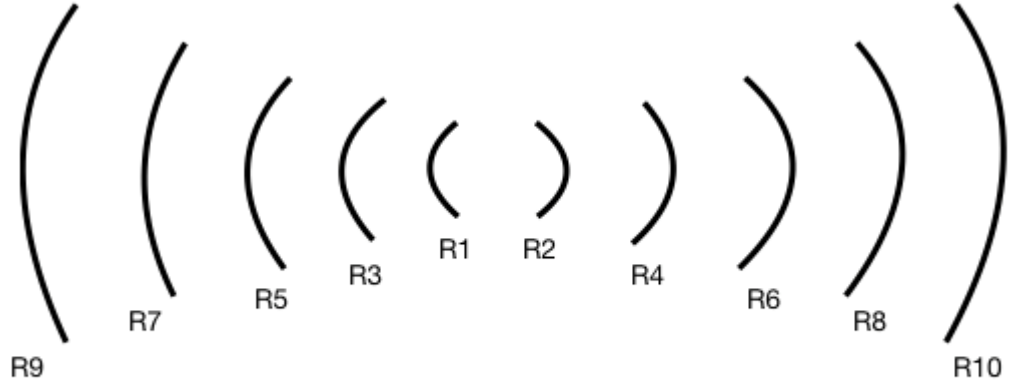
وفي مطلع المحاضرة الخامسة يقول: “لا بد من الاقرار بحقيقة جوهرية هي حقيقة المزيج السلالي المعين الذي هو عامل أساسي جوهري في اعطاء الأمة صفتها، حقيقة طبيعتها وأسباب مواهبها التي تظهر في افعالها في مجرى التاريخ، أي أنه إذا لم يكن السوريون يعودون لاصل سلالي واحد فان لهم خصائص سلالية واحدة حاصلة من مزيجهم تجعل لهم مزايا تتميز عن مزايا أخرى في العالم.”

لقد ظن كثيرون من خصوم سعادته بأن قوله الآنف الذكر يرادف الاعلان عن عنصرية وأخذوا يرمونه بتهمة التعصب العرقي وقالوا إنه أحلّ التعصب للمزيج السلالي محل التعصب للسلالة الواحدة، وأن الاثنين يعبران عن عنصرية.

أن سعادته عالم الاجتماع الخبير المتمق في علوم الحياة والانسان لم يكن ليستبدل الحقائق العلمية بأي نوع من أنواع المجاملة أو مراعاة وأتقاء نقد المنتقدين ناقصي العلم في ذلك الوقت. إنه لم يكن يبدي رأياً ولم يكن يقدم نظرية لكي نقول أنه كان عنصرياً أو أنه لم يكن عنصرياً. بل أنه كان يعلن حقيقة علمية أصبحت اليوم، بعد ثلاثة أرباع القرن من الزمن، محط أجماع علماء الانسان والحياة. إن عبارات “لا بد من الاعتراف بواقع...” و “لا بد من الاقرار بحقيقة جوهرية...” ليست عبارات عقائدية - فلسفية ولا تصريحات سياسية، بل هي عبارات علمية لمن يجيدون القراءة ويميزون بين ما هو فلسفي وما هو علمي.

أقول ذلك الآن حيث وجدت مصوراً كنت قد أضعته منذ ثماني سنوات، وهذه قصته:

لقد قابلت سنة 2010 عميد إحدى كليات جامعة سدني البرفسور تشيزولم ماكسويل، وهو الاختصاصي في علم الحياة وله فيها مئات الابحاث والاطروحات العلمية. سألته إذا كانت معارفه العلمية تسمح له بالقول بأن المزيج السلالي أنواع منها المتجانس ومنها المتباين. وقلت له صراحة أنني أسأله لأن أنطون سعادته يقول ذلك وأنا أريد أن اسمعه من عالم آخر. كان جوابه أن سعادته مصيب مئة بالمئة، وسألني بدوره لماذا لم يقرأ للدكتور سعادته ولو بحثاً علمياً واحداً في هذا المجال في أية مجلة من المجلات العلمية الاختصاصية. لقد ذهل هذا البروفسور عندما قلت له أن سعادته لم يكن دكتوراً بل كان زعيماً سياسياً، ولم يكن باحثاً في علم الجنيتيك بل كان فيلسوفاً وعالماً اجتماعياً لم يدرس علم الانسان والحياة ألا ليؤسس فلسفته على الحقائق والمعارف العلمية لزمانه، وأنه كان قائداً لحركة الحزب السوري القومي الاجتماعي وأنه أستشهد “أغتياًلاً رسمياً” منذ ستين سنة. قال لي أنه كاد أن يطلب مني أن أعرفه على سعادته شخصياً، وأن سعادته هو حقاً سابق لعصره لأنه من ستين سنة لم يكن هناك أجماع على فكرة التجانس او التباين الدموي بل كانت مسألة تحتاج لبرهان قاطع، أما اليوم فهي حقيقة علمية ثابتة. ثم أنكب البروفسور تشيزولم ورسم لي هذه الصورة:



وقال شارحاً مما أستطعت تدوينه تحت الصورة ما يلي:

وترجمة ذلك ما يلي:

كلما كانت الدائرة أوسع كلما كان المزيج أفضل. وذلك لعدة أسباب منها:

1 - يصبح المزيج أغنى وأكثر تنوعاً.

2 - سلالات جديدة لم يكن لها وجود تاريخي سابق تدخل في المزيج وتجدهم.

3 - المزيج 9+1 هو أفضل من المزيج 2+1 لأن 9 أبعد من 2 بالنسبة ل1.

س: ماذا تعني بكلمة أفضل؟

ج: كلمة أفضل تعني صحي أكثر وقل تشوهات خلقية.

س: ماذا تعني بعبارة صحي أكثر؟

ج: أعني أن الناس يعيشون سنياً أطول دون أنتكاسات صحية وهم أقل عرضة للأمراض لأن جهاز المناعة عندهم أقوى.

إن ما أدلى به هذا العالم سنة 2010 يؤكد ما أعلنه سعادته سنة 1935 عندما وضع شرح المبادئ لأول مرة في كتاب التعاليم (النصوص واردة في مطلع هذا المقال)، مع فارق أن هذا العالم قد أقتصر على الناحية المادية البيولوجية من الموضوع التي هي من أختصاصه، ولم يتطرق إلى الشأن النفسي العقلي الذي لا يعنيه. ذلك رغم أنني حاولت أستدرجه للتطرق إلى مسألة التأثير النفسي العقلي لنوعية المزيج السلالي عندما سألته عن المقصود بعبارة "أفضل" وعبارة "صحي أكثر". وهذا مفهوم ومقبول من أختصاصي في علم الحياة البيولوجيا وليس مطلوباً منه أكثر من ذلك. أما سعادته فقد جمع إلى معارفه في علوم الحياة معرفة في علم الاجتماع والتاريخ وعلم النفس الاجتماعي. يقول سعادته:

“لا يمكننا أن نفهم فهماً صحيحاً نفسيات الافراد ونفسيات الجماعات البشرية إلا بفهم فسيولوجيتها وحقيقة تركيبها الوراثي أيضاً... أن هناك علاقة وثيقة بين الشكل والروح، بين فراسة الانسان التشريحية الخارجية ونفسيته ومقدرته العقلية... إذا درسنا الشعب السوري من الوجهة الانترولوجية الطبيعية وجدنا توافقاً عظيماً بين أنتاجه الثقافي العمراني وأفعاله التاريخية العظيمة من جهة، وأشكاله الانترولوجية الممتازة من جهة أخرى. وهو توافق لا يمكن أن يكون من سبيل الصدفة أو بلا مغزى. فالشعب السوري راق جداً في مزيجه السلالي المتجانس الذي مكنه من أنشاء الثقافة المادية والروحية وتقديم أنتاج ثقافي هام للتقدم الانساني العام، ولا يمكننا أن نتصور هذه المقدرة الانشائية عارضاً لا علاقة له بطبيعة الحيوية الوراثية فيه القادرة على الخلق والاكْتساب... لذلك فأنا ندرك جيداً أننا إذ نقول بالمزيج السلالي وبأنه لا يوجد أصل سلالي واحد للأمة، لا نعني مطلقاً إهمال أهمية الجنس وخصائص المزيج الجنسي المتجانس وأهمال الحقائق العلمية الثابتة التي تعطينا أساساً جديداً للنظر في أصول الأمم وأحوال الجماعات البشرية على وجه العموم”.

لقد أوردنا هذه النصوص لنبرهن أن فكرة التفضيل في المزيج هي حقيقة علمية ثابتة، ونعود ونكرر أن التفضيل في المزيج ليس سببه التفضيل المزعوم في السلالات الداخلة فيه، بل في غير ذلك، أنه في تجانس السلالات الداخلة في المزيج أو عدمه، وأنه في شمول المزيج وأتساعه وتجده أي دخول عناصر جديدة فيه في أزمان متعددة... الخ.

### ثانياً: في السلالة التاريخية

إن حقيقة المزيج السلالي المعين المختلف عن مزيج سلالي آخر قد قاد العلماء الى الكلام عن ما أسموه السلالة التاريخية. فالسلالة التاريخية هي إذاً الخصائص السلالية الناتجة من مزيج سلالي معيّن عبر التاريخ.

يذكر سعادته هذه المسألة في كتابه “نشوء الامم” (الاعمال الكاملة ج 3 ص 138) حيث يقول:

“من المؤلفين في السلائل، ك”مرتيليه”، من يميز بين السلالات التاريخية والسلالات الحيوانية الفيزيائية. وهذه نظرة تذهب الى أن أختلاط سلالات أمة معينة وتمازج نسلها قد يولدان، على التعاقب، سلالة فرعية أو ثانوية بحيث يصبح في الامكان التكلم عن السلالة السورية والسلالة الالمانية والسلالة الانكليزية... وقد ورد ذكر السلالة السورية على اقلام الكتاب كما جرت على اقلامهم السلالة الانكلوسكسونية...”. ويظهر تبني سعادته لمعنى السلالة التاريخية في قوله على الصفحة 140 ما يلي: “...المزيج المتجانس أصل كاف للأمة، وهذا المزيج هو ما يعبر عنه أحياناً بلفظة السلالة”، ولا شك أن لفظه السلالة هنا هي السلالة التاريخية وليست السلالة الدموية - الحيوانية - الفيزيائية.

نستطيع الآن أن نفهم سبب قول سعادته “بالسلالة المتفوقة” التي هي للسوريين الكنعانيين و”بالسلالة الأخط” من سلالاتهم التي هي لشعوب شمالي أفريقيا (في كلامه عن كيفية فتح السوريين الكنعانيين لشمال أفريقيا وكيفية فتح العرب المسلمين لها)، مع أن لا السورييين الكنعانيين ولا شعوب شمالي أفريقيا ولا العرب هم مؤلفون من سلالة واحدة متفوقة أو منحطة (من شرح المبدأ الاساسي الرابع). لقد كان سعادته يتكلم على السلالة التاريخية وليس على السلالة العرقية الدموية الحيوانية الفيزيائية.

سدني في 21-11-2018